

الفصل الأول

النقد الصهيوني للشخصية اليهودية

سيتناول هذا الكتاب ، كما ذكرنا في المقدمة ، قضية العنف والصهيونية بشكل عام ، ولذا سنبدأ يتناول ما يمكن تسميته «النقد الصهيوني للشخصية اليهودية» وهو مستمد من أدبيات معاداة السامية أي معاداة اليهود ، فالصهيونية ، علي عكس ما يتصور الكثيرون ، «تكره» اليهود وتطرح نفسها بديلا للعقيدة اليهودية . ومن ثم نجد أن وصف الصهاينة لليهود واليهودية لا يختلف في أساسياته عن وصف أعداء اليهود لهما ، فيتهم الصهاينة يهود المنفي ، أي يهود العالم ، بالهامشية والشذوذ والطفيلية والعجز ، وأنهم لا نفع لهم .

هامشية اليهود وشذوذهم

«هامشية اليهود» مصطلح يُستخدم في الدراسات التي تدور حول وضع أعضاء الجماعات اليهودية في الحضارة الغربية ، خصوصا شرق أوروبا ، وهو مصطلح يصف وجودهم الاقتصادي والاجتماعي والحضاري كجماعة وظيفية وسيطة (انظر الملحق) تضطلع بوظائف وحرف ومهن مختلفة ، مثل التجارة البدائية والربا وقد كانتا عمليتين مرتبطتين بالنظام الإقطاعي ولكنهما لم تكونا قط من صميم العملية الإنتاجية ذاتها . بل إن الحرف التي كان يمارسها اليهود أنفسهم ، لم تكن مرتبطة بالفلاحين ، وإنما كانت مرتبطة بالتجار اليهود أو الأمراء الإقطاعيين . ولذلك ، فحينما ظهرت الرأسمالية المحلية في شرق أوروبا مع بدايات القرن التاسع عشر ، ثم الدولة القومية والنظام المصرفي الحديث ، وجد أعضاء

الجماعات اليهودية أنفسهم بلا دور اقتصادي أو إنتاجي يلعبونه، وبالتالي كانوا عرضة لاضطهاد المجتمع الذي لم يعد في حاجة إلى خدماتهم ولم يعد يرى لهم نفعاً، الأمر الذي أدى إلى زيادة حدة تفاقم المسألة اليهودية وزيادة هجرتهم إلى غرب أوروبا. وقد بذلت الحكومة الروسية، وكذلك الحكومة النمساوية التي كانت تتبعها جاليشيا، جهوداً شتى لتحويل اليهود إلى قطاع اقتصادي منتج عن طريق فتح أبواب مهنة الزراعة أمامهم. وساهم في هذه الجهود مليونيرات الغرب من اليهود، مثل هيرش وروتشيلد، لأن هجرة اليهود من شرق أوروبا إلى غربها كانت تسبب لهم الحرج الشديد كما كانت تهدد مواقعهم الاقتصادية والحضارية التي اكتسبوها عن طريق الاندماج. وقد تعثرت هذه المحاولات وهو ما اضطر الحكومة الروسية، على سبيل المثال، إلى أن تلجأ للقمع الاقتصادي عن طريق إصدار قوانين مايو. وهامشية اليهود موضوع أساسي كامن في كتابات الصهاينة العماليين الذين يقترحون تحويل اليهود إلى شعب منتج عن طريق الهجرة واقتحام الأرض والعمل والحراسة والإنتاج.

والحديث عن هامشية اليهود فيه كثير من التعميم والتجريد. فالهامشية المقصودة هي هامشية يهود شرق أوروبا في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي وحسب، لأن الدور اليهودي (الوظيفي التجاري المالي) (انظر الملحق) في المجتمعات الزراعية التقليدية في الغرب كان دوراً حيويًا، إذ اضطلع أعضاء الجماعات اليهودية بوظيفة أساسية في المجتمع رغم أنها لم تكن جزءاً من العملية الإنتاجية الرئيسية. أما الوجود اليهودي في العالم الإسلامي فلم يكن هامشياً قط، حيث تفاعلوا في محيطهم الحضاري واصطبغوا به فأبدعوا من خلاله وانخرطوا في سائر المهن والوظائف. كما أن الوجود اليهودي في الولايات المتحدة لم يكن أبداً هامشياً وإنما كان في صميم المجتمع ذاته من البداية. كما لا يمكننا استخدام مصطلح «هامشي» لوصف الوجود اليهودي في فرنسا أو إنجلترا أو روسيا السوفيتية (سابقاً)، فالبناء الوظيفي لأعضاء الجماعات اليهودية في كل هذه البلاد لم يعد متميزاً كما كان الأمر سابقاً. وإذا كان ثمة تمييز، فإنه يعود لكون الجماعة اليهودية أقلية أو جماعة وظيفية وليس لأنها يهودية. وإذا كان هناك أي وجود هامشي غير منتج حتى الآن، فهو

وجود الدولة الصهيونية الوظيفية الممولة من الخارج التي أُسِّست على أرض الفلسطينيين وحوّلتهم إلى عمالة رخيصة ولا تزال مستمرة في قمعهم وإجهاض تطلعاتهم وأحلامهم المشروعة .

ومن المصطلحات الأخرى الشائعة في الأدبيات الصهيونية والمعادية لليهود عبارة «شذوذ اليهودية» وهي عبارة تشير إلى بعض السمات التي تُوصَف بأنها غير طبيعية ، والتي يُفترَض أنها تسم أعضاء الجماعات اليهودية الغربية ، والتي يمكن إزالتها عن طريق إصلاح اليهود أو تحويلهم إلى قطاع اقتصادي منتج أو عن طريق دمجهم أو تطبيعهم . ويرى الصهاينة أن وجود اليهود في المنفى والشتات (أي خارج فلسطين) حالة شاذة تسبب شذوذاً للشخصية اليهودية . وبالفعل ، وجه الصهاينة سهام نقدهم إلى هذه الشخصية المريضة الشاذة غير السوية .

ولشذوذ الشخصية اليهودية ، من وجهة نظرهم ، مظهران أساسيان : أحدهما اقتصادي والآخر سياسي . أما المظهر الاقتصادي ، فيتبدى في اشتغال اليهود بأعمال السمسرة والمضاربات والأعمال الهامشية غير المنتجة ، مثل : التهريب والأعمال المالية والاتجار في العقارات وتجارة الرقيق الأبيض والتسول ، بينما يتمثل المظهر السياسي فيما يُطلق عليه إشكالية العجز وعدم المشاركة في السلطة (انظر هذا الفصل) . وقد انعكست الظاهرة في ازدواج الولاء عند اليهودي ، فهو نظراً لافتقاره إلى وطن قومي خاص به يضطر إلى أن ينتمي إلى مجتمعات غريبة يحاول أن يندمج فيها . ولكن نزعته القومية الحقيقية تستمر ، مع هذا ، في التعبير عن نفسها رغم أنفه ، فينقسم على نفسه وتتنازع الولاءات المتناقضة .

وقد لاحظ المؤرخ الصهيوني العمالي دوف بير بوروخوف (١٨٨٣ - ١٩١٧) أن الهرم الاجتماعي عند اليهود مشوه تماماً . فبدلاً من وجود قاعدة عريضة من العمال والفلاحين والطبقات المنتجة ، وقلة من المفكرين والأطباء والمحامين والوسطاء ، كما هو الحال في معظم المجتمعات ، نجد العكس تماماً عند اليهود . فالهرم الإنتاجي عند اليهود مقلوب رأساً على عقب إذ أن معظم اليهود من الوسطاء . وغني عن القول أن السمات الشاذة التي تسم أعضاء الجماعات اليهودية هي في واقع الأمر السمات الأساسية لأية جماعة وظيفية ، ومن ثم فهي تمثل ظاهرة إنسانية

اجتماعية عامة لا تتسم بأي شذوذ . ولكن المعادين لليهود والصهاينة يرونها كذلك لأنهم يعزلون أعضاء الجماعات اليهودية عن محيطهم الحضاري والاجتماعي وينظرون إليهم من خلال نماذج اختزالية لا علاقة لها بوضعهم المتعین ، ثم يحكمون عليهم بالشذوذ .

العجز اليهودي (بسبب انعدام السيادة وعدم المشاركة في السلطة)

إتهم الصهاينة أعضاء الجماعات اليهودية إتهاما آخر ، وهو الاتهام بما يسمى «العجز بسبب انعدام السيادة وعدم المشاركة في السلطة» ، وهي عبارة تحاول أن تفسر المسألة اليهودية على أنها تتلخص في افتقار اليهود إلى السيادة القومية وعدم مشاركتهم في صنع القرار . وتعود هذه الحالة (حسب التصور الصهيوني) إلى عام ٧٠م عندما قام تيتوس بهدم الهيكل رمز السيادة القومية وأصبح اليهود جماعات مشتتة ليست لها سيادة قومية مستقلة ، يوجد أعضاؤها خارج نطاق مؤسسات صنع القرار بعيداً عن أية سلطة ، وبالتالي أصبحوا غير متحكمين في مصيرهم . ويستند هذا النموذج التفسيري إلى عدة افتراضات اختزالية من بينها تصور أن العبرانيين القدامى والعبرانيين اليهود ، أي اليهود حتى عام ٧٠م ، كانوا يمارسون سيادة قومية كاملة . وهذا أمر مشكوك فيه . فلقد كان العبرانيون - حسب ما وصلنا من معلومات - أقناناً أو عبيداً أو قبائل رحلاً . وبعد التسلسل العبراني في كنعان ، ظل العبرانيون جيوباً متفرقة لا تمتلك كثيراً من السيادة القومية . والاستثناء الوحيد من هذه الصورة العامة هو حكم كل من داود وسليمان (المملكة العبرانية المتحدة) الذي لم يدم أكثر من أربعين عاماً بسبب الغياب المؤقت للقوى العظمى في الشرق الأدنى القديم . ثم ظهرت الدويلتان العبرانيتان اللتان كانتا تتبعان في سياستهما إما آشور وبابل أو مصر أو أرام دمشق . وقد دام حكم الحشمونيين فترة قصيرة لا تزيد على مائة عام ، بدأت بتوقيع معاهدة مع روما (القوة العظمى الصاعدة) وانتهت بتدخل بومبي في تعيين الملك الحشموني .

ويفترض هذا النموذج التفسيري أيضاً وحدة المصير اليهودي ووحدة أعضاء الجماعات . وهذا أمر يتناقض تماماً مع الحقائق التاريخية ، فقد كان مصير كل

جماعة يهودية يتحدد بآليات وحركات التشكيل الحضاري والسياسي الذي توأجت داخله .

ويُنكر هذا النموذج التفسيري أن أعضاء الجماعات اليهودية كانوا في كثير من الفترات ، شأنهم شأن أعضاء الجماعات الدينية والإثنية الأخرى ، يشاركون في السلطة من خلال المؤسسات التقليدية للحكم . فالمجتمعات التقليدية كان لها نظامها الخاص في تقسيم السلطة بحيث تسيطر السلطة الحاكمة على الجيش والسياسة الدولية . أما الشؤون الأخرى ، وضمنها الأمن الداخلي ، فكان يتم تسييرها عن طريق مؤسسات الإدارة الذاتية .

ثم يفترض هذا النموذج التفسيري وجود إدارة وسيادة يهودية مستقلة ، وهو افتراض خاطئ تماماً . ففي العصر الحديث ، يشارك أعضاء الجماعات ، منفردين أو مجتمعين ، في السلطة وفي صنع القرار من خلال مؤسسات الدولة الحديثة (البرلمانات والأحزاب السياسية) . فعلى سبيل المثال ، يُعدُّ تعيين هنري كيسنجر وزيراً للخارجية الأمريكية ، وهو من أهم المناصب السياسية في العصر الحديث ، تعبيراً عن هذا الشكل من أشكال المشاركة في السلطة . وبالمثل فإن اللوبي الصهيوني شكل آخر لهذه المشاركة ؛ حيث يشكل بعض أعضاء الجماعة اليهودية قوة ضغط داخل الكونجرس الأمريكي تقوم بممارسة الضغط لصالح الدولة الصهيونية . وهذه هي إحدى الآليات الأساسية للنظام السياسي الديمقراطي في الغرب .

وسيجد الدارس المدقق لهذا النموذج التفسيري أن المفكرين الصهاينة ، ومعظمهم من أصول إشكنازية شرق أوروبية ، حين يتحدثون عن العجز بسبب انعدام السيادة وعدم المشاركة في السلطة ، إنما يفكرون في تجربة أعضاء الجماعات اليهودية في أوروبا ابتداءً من العصور الوسطى حتى بداية القرن الحالي . ولذا ، فإن المقولة تحمل شيئاً من الصحة إن تحدد مجالها الدلالي على هذا النحو .

ومن المعروف أن أعضاء الجماعات اليهودية في العصور الوسطى في الغرب ، كانوا تجاراً ومرابين وأقنان بلاط وأرندا ويهود بلاط ، وكلها أشكال مختلفة من

أنماط الجماعة الوظيفية ، وكانوا كذلك قريين دائماً من الحاكم ملتصقين به ، كما كانوا يشكلون أدواته الطيبة في عملية الاستغلال وامتصاص فائض القيمة من الجماهير . ولكنهم ، مع هذا ، لم يشاركوا في صنع القرار ، فقد كانوا منبتي الصلة بالجماهير وتعوزهم القوة العسكرية ، وهذا ما جعلهم في حالة عجز واعتماد كامل على الحاكم الذي كانت ثقته بهم تتزايد لأنهم لا يشكلون أية خطورة عليه بسبب عجزهم عن الاستيلاء على السلطة أو لعدم وجود أساس من القوة يؤهلهم للمطالبة بنصيب فيها .

قيادات الجماعات اليهودية

يري الصهاينة أن أعضاء الجماعات اليهودية ، عبر تواريخهم ، واجهوا دائماً مشكلة القيادة ومشكلة من يتحدث باسمهم أمام السلطة الحاكمة . ولم يواجه العبرانيون القدامى هذه المشكلة ، ففي فترة الآباء كانت قيادتهم تتشكل من شيوخ القبيلة (القضاة) . وحسبما وصلنا من معلومات عن هذه الفترة السديمية ، لم يكن هناك ما يميّز العبرانيين عن سواهم من الأقوام المتجولة في الشرق الأدنى في العالم القديم من ناحية البناء السياسي والطبقي . وقد استمر الوضع على ذلك أثناء فترة القضاة حين ظهرت القيادة الكاريزمية القبليّة التي لم تكن تختلف في جوهرها عن القيادة القبليّة في عصر الآباء . وبعد ذلك ، ظهرت مؤسسة الملكية تساندها طبقة الكهنة ، فقد حكم العبرانيين ملوك ابتداء من ١٠٢٠ حتى ٥٨٦ ق.م . ولكن ، وبطبيعة الحال ، كانت ثمة صراعات على القيادة لازمت هذه الممالك . فبعد وفاة شاؤول ، انقسمت المملكة إلى قسمين ؛ الجنوبي (يهودا) وقد استولى عليه داود ، والشمال (يسرائيل) الذي استولى عليه إشبعل ابن شاؤول . وبعد سبع سنين ونصف السنة ، اتحدت المملكتان ثانية تحت قيادة داود ، ثم جاء سليمان وكانت أول خطوة قام بها أن قتل جميع منافسيه في الملك ليستريح من متاعبهم . ولكن المملكة الموحدّة انقسمت بعد موته مباشرة إلى مملكتين مستقلتين متخاصمتين ومتحاربتين : المملكة الشمالية وبقيت حتى عام ٧١٢ ق.م ، والمملكة الجنوبية وبقيت حتى عام ٥٨٦ ق.م . كما أن المملكتين كانتا بدورهما ميداناً لنزاعات داخلية مستمرة . كما

كان هناك صراع دائم بين الكهنة والملوك (المؤسسة الحاكمة) من جهة والأنبياء من جهة أخرى .

وبعد هذا التاريخ ، أخذت مشكلة القيادة في الظهور بكل أشكالها ، إذ تحوّل كثير من الجماعات اليهودية إلى جماعات وظيفية . وتتسم الجماعة الوظيفية بأن قياداتها تهيمن على أعضائها لأنها عادةً جماعة صغيرة عددياً ، كما أنها لا بد أن تخضع لعملية ضبط اجتماعي هائلة حتى يتسنى لأعضائها القيام بوظائفهم وحتى يمكنهم توارث الخبرات من خلال الجماعة الوظيفية . وعادةً ما كانت النخبة الحاكمة تطلق يد قيادة الجماعة الوظيفية في تصريف أمور الجماعة كشكل من أشكال الإدارة الذاتية . ومع أن الوضع في فلسطين كان مختلفاً ، بطبيعة الحال ، إلا أنه يُلاحظ أن الجماعة اليهودية على أرض فلسطين فقدت استقلالها السياسي (باستثناء فترة الحشمونيين القصيرة) وأصبحت دولة تابعة لإمبراطورية كبرى . ولكن علاقة النخبة الحاكمة الإمبراطورية بالقيادة اليهودية المحلية كانت لا تختلف كثيراً عن علاقة أية نخبة حاكمة بقيادات الجماعات اليهودية الوظيفية .

ومنذ فترة التهجير إلى بابل ، قام أعضاء الجماعات اليهودية بتصريف أمورهم الدينية وبعض أمورهم الدنيوية المحلية ذات الطابع الإداري ، مثل جمع الضرائب ، بتصريح من السلطة الحاكمة وفي إطار الإدارة الذاتية المعمول بها في معظم الإمبراطوريات القديمة ، شأنهم في هذا شأن كل الطوائف والجماعات الوظيفية في المجتمعات التقليدية وفي هذا الإطار تم تأسيس المجمع الكبير . وقد استمر هذا النمط وساد بين أعضاء الجماعات اليهودية حتى القرن التاسع عشر ، ثم تقلص بعد ذلك التاريخ إلى تصريف الأمور الدينية وحدها . ولا يُستثنى من هذا النمط إلا أعضاء التجمع الصهيوني . وقد تولي القيادة في غالب الأمر تحالف من رجال الدين وأثرياء اليهود وكانت التفرقة بينهم صعبة في معظم الأحيان . وبعد مرسوم قورش بالعودة من بابل (٥٣٨ ق . م) ، آلت القيادة إلى طبقة الكهنوت المتركرة حول الهيكل ، وتحالف معهم أثرياء اليهود الذين تأغرقوا ، فقاومتهم العناصر العبرانية المحلية . ثم ظهر من بينهم ، لفترة زمنية قصيرة ، ملوك الحشمونيين (١٤٢ - ٦٥ ق . م) الذين كانوا يحملون لقب الكاهن الأعظم ، وقد تأغرق هؤلاء أيضاً وتعاونوا في نهاية الأمر مع السلطة السلوقية ثم الرومانية . أما حكم الهيروديين

(ابتداءً من ٣٧ ق. م) ، فكان تابعاً للرومان تماماً . ومن المعروف أن لقب «ملك روماني (دوكس)» الذي كان يحمله ملوكهم وبعض ملوك الحشمونيين من قبلهم ، كان لقباً شرفياً وحسب إذ كانوا يدينون بالتبعية الكاملة لروما . وقد كان الملوك الهيروديون يعينون كاهناً أعظم يعمل موظفاً لديهم ويدين لهم بالولاء . وقد أصبح للجماعة اليهودية في بابل مركز سلطة مستقل يترأسه رأس الجالوت (المنفى) . وحين تعاضم عدد يهود مصر وتزايد نفوذهم ، أصبح لهم ، هم أيضاً ، قيادتهم المستقلة بل هيكلهم المستقل . وفي نهاية القرن الأول قبل الميلاد ، ظهرت داخل اليهودية تيارات متعددة كان من أهمها الصدوقيون والفريسيون والغيورون ، طرح كل منهم نفسه باعتباره قيادة اليهود الحقيقية ، في فلسطين أساساً ، وفي العالم ككل . ثم نشب التمردان اليهوديان الأول والثاني ضد الرومان واللذان انتهيا بتهديم الهيكل بيد الرومان ، الأمر الذي وضع نهاية للمرحلة العبرانية اليهودية .

ويُلاحظ أنه ، بعد هدم الهيكل ، لا يوجد شكل واحد محدد للقيادة يسود الجماعات اليهودية إذ كانت كل جماعة خاضعة للتشكيل الحضاري السياسي الذي توجد فيه . وعلى سبيل المثال ، فإن قيادة يهود الفلاشاه التي استمرت حتى العصر الحديث كانت قبليّة ، واصطبغت قيادة يهود بني إسرائيل في الهند بطابع هندي واضح ، وتأثرت قيادة يهود كايبنج بالحضارة الصينية . أما يهود الخزر ، فقد سادت بينهم مؤسسة الملكية المزدوجة (التركية) . أما في الشرق الإسلامي ، فقد ترأس الجماعات اليهودية رأس الجالوت (المنفى) ، وكان منصبه المركزي تعبيراً عن مركزية الإقطاع في العالم الإسلامي . وقد ظهر إلى جواره نخبة قائمة دنيوية تستند هيبتها إلى نجاحاتها التجارية وراثتها ، وقد كانت هي التي تتحكم في النخبة الدينية . وهذا وضع يشبه الوضع في الولايات المتحدة في الوقت الحالي ، إذ أن أثرياء اليهود قد أمسكوا بزمام قيادة الجماعة اليهودية فعلياً ، وتضاءل دور المفكرين الدينيين والمحامات .

و حين كانت الدولة المركزية قوية ، كان اليهود يتبعون مركزاً واحداً وقيادة واحدة . وحينما كانت السلطة المركزية تضعف وتنقسم الدولة إلى دويلات ، كانت الجماعات اليهودية ذاتها تنقسم إلى وحدات صغيرة تتبع كل منها الدولة التي تعيش فيها . في العالم الإسلامي على سبيل المثال ، حينما كانت تحكمه سلطة مركزية

قوية ، كان منصب رأس الجالوت يتمتع بنفس القوة . ومع تفكُّك الدولة الإسلامية إلى دويلات أو مقاطعات شبه مستقلة ، ظهر منصب رئيس اليهود (نجيد) في مصر وفي غيرها من البلاد الإسلامية .

ومع هذا ، كانت الجماعات اليهودية ، داخل الإطار القوي للدولة العثمانية ، منقسمة فيما بينها متصارعة الواحدة مع الأخرى ، واحتفظت كل جماعة باستقلالها . ولكن حدثت عملية اندماج فيما بينها مع مرور الزمن نظراً لسيادة العنصر السفاردي . ولذا ، فقد عينت الدولة العثمانية الحاخام باشي (في القرن التاسع عشر) ليمثل نوعاً من القيادة المركزية لليهود الدولة العثمانية .

ومن ناحية ظهور المسألة اليهودية وتطور الحركة الصهيونية ، قد يكون من المفيد التركيز على أوروبا وحدها . ويلاحظ أن الإقطاع الأوربي لم يكن ذا سلطة مركزية واحدة وإنما كان منقسماً إلى وحدات صغيرة . ومن الحقائق الأساسية التي تتعلق بالإقطاع الأوربي أن القيادات اليهودية انقسمت بانقسام الجماعات ، فكان لكل جماعة يهودية وظيفية نخبها القائدة التي كانت تتكون عادةً من كبار رجال الدين والممولين وتستبعد صغار رجال الدين والتجار . ويظهر هذا في مؤسسة القهال التي كانت تتكون من تنظيمات صغيرة متصارعة فيما بينها ، ثم أصبحت في نهاية الأمر ممثلة في مجلس البلاد الأربعة الذي تم حله عام ١٧٦٤ ، فعادت التوترات والصراعات بين منظمات القهال المختلفة مرة أخرى . وفي بداية القرن السابع عشر ، ظهر يهود البلاط (وهم من كبار الممولين الذين كان يعتمد عليهم الحاكم) الذين كانوا يكتسبون هبة خاصة وشرعية نتيجة ارتباطهم بالحاكم ويتحولون إلى قيادات للجماعة اليهودية ويتحدثون باسمها أمام الأمير . وكانت أهم وظيفة تُوكَل إلى القيادات وظيفية الوسيط (شتدلان) ، تلك الوظيفة التي كانت مهمتها التوسط بين الحاكم وأعضاء الجماعة . وكان هؤلاء الوسطاء ، بسبب ثرائهم ونفوذهم ، يقدمون الصدقات للفقراء من أعضاء الجماعة ، الأمر الذي كان يعطيهم شرعية هائلة ، فشرعية هذه القيادة كانت تستند إلى ثرائها وإلى نجاحها في عالم الأغيار ، وإلى تقبل عالم الأغيار لها ، وهي ليست قيادة دينية أو نابعة من داخل حركات الجماعة اليهودية .

ومع تدهور الجماعة اليهودية في شرق أوروبا ، في بولندا وروسيا اللتين كانتا تضمّان معظم يهود أوروبا والعالم ، تدهورت هذه القيادات أيضاً وأصبحت فاسدة ، وتحوّل القهال من شكل للإدارة الذاتية إلى أداة استغلال وقمع . وكان منصب الحاخام يُباع ويُشترى وكذلك منصب القاضي ، وهو ما كان يجعل الرشوة أمراً طبيعياً في المحاكم الشرعية اليهودية ، وهكذا ازداد انفصال القيادات الدينية والدينية عن جماهيرها . وربما كان هذا الوضع المتردي أحد العناصر التي أدت إلى تفجّر النزعات المشيخانية والحركات الشبتانية التي جاءت بعدها ، والتي كانت تمثل ، فيما كانت تمثله ، ثورة ضد القيادة التقليدية المكوّنة من الحاخامات والأثرياء ، فضمت عناصر كثيرة من بينها صغار الممولّين وصغار الحاخامات ، وكل من اهتز وضعه الاقتصادي نتيجة التحولات الاقتصادية ، وكل من استبعدته أشكال التنظيم القديمة . وقد كان لهذه الحركات قياداتها الكاريزمية ، يتبع كل قائد مريدوه وأتباعه وجماهيره . ولما كان لكل جماعة ، مثل الدونمه والفرانكيين ، طقوسها ومعتقداتها المتميزة عن طقوس ومعتقدات اليهودية الحاخامية ، فقد شكلت مثل هذه الجماعات جيوباً مستقلة . وكثيراً ما كانت هذه الجماعات تطلب إلى الحاكم أن يحميها من اضطهاد القيادات الحاخامية والمالية . وقد كانت الحركة الحسيدية أكثر الحركات الصوفية (الشبتانية) انتشاراً وجماهيرية . وكان لكل جماعة حسيدية قائدها (تساديك) وهو زعيمها الديني الصوفي الذي كانت تقوم بينه وبين أتباعه علاقة مباشرة حميمة ، فهو الصلة الوحيدة بينها وبين الإله حسب التصور القبّالي . وقد حلّ التساديك محل الحاخام بالنسبة إلى الحسيديين .

غير أن التحدي الأكبر للمؤسسة الحاخامية جاء من بين صفوف دعاة حركة التنوير (مسكليم) مع نهاية القرن الثامن عشر بتأييد من التجار اليهود الذين كانوا يشكلون جزءاً من الاقتصاد الرأسمالي الصناعي الجديد الذي جعل وجود الجماعات الوظيفية (اليهودية وغير اليهودية) غير ذي موضوع . وقد تلقى هؤلاء تعليمهم خارج المحيط اليهودي التقليدي . وكانوا قادرين على التعامل بكفاءة مع العالمين اليهودي والمسيحي والتقليدي والحديث ، فطرحوا أنفسهم باعتبارهم القيادة المنطقية للجماعات اليهودية ، والقادرين على التحدث باسمها ، والعارفين بمصالحها ، حتى ولو رفض السواد الأعظم من اليهود ذلك الرأي . وكانت

الحكومات الغربية الحريضة على تحديث أعضاء الجماعات اليهودية وعلى علمتهم ،
تؤثر التعامل معهم ، وهذا يعني أن دعاة التنوير كانوا ، مثل يهود البلاط ، يكتسبون
شرعيتهم من عالم الأغيار .

وحيثما ظهرت الحركة الصهيونية ، كانت بعض أشكال القيادة التقليدية لا تزال
سائدة برغم تزايد تحديث أعضاء الجماعات اليهودية ودمجهم في مجتمعاتهم . ولا
يمكن فهم سلوك الزعامات الصهيونية في شرق أوروبا إلا في ضوء هذه الحقيقة .
وقد كانت منظمات أحباء صهيون منظمات حديثة تنطلق من مفاهيم حديثة مثل
تطبيع الشخصية اليهودية وحل المسألة اليهودية عن طريق الاستعمار . ولكن ،
ورغم أن المفكرين الصهيونيين ليو بنسكر (١٨٢١ - ١٨٩١) وموشيه ليلينبلوم
(١٨١٤ - ١٨٩٨) تلقيا تعليماً علمانياً ، فإنهما حينما بدأ في التحرك اتبعا النمط
التقليدي فطلبوا إلى الحاخام صمويل موهيليفر (١٨٢٤ - ١٨٩٨) أن يتوجه إلى
المليونير الألماني اليهودي سمسون روفائيل هيرش (١٨٠٨ - ١٨١٨) والمليونير
الفرنسي اليهودي إدمون جيمس وروتشيلد (١٨٤٥ - ١٩٣٤) ليطلب منهما تقديم
المساعدة لمشروعهما الاستيطاني ، أي أنهما توجهوا للوسيط (شتدلان) التقليدي
(الحاخام) الذي يتوجه إلى الثري حتى يتوسط لدى الحكومات المعنية وحتى
يزودهما بالدعم المالي الذي يريدانه . وظلت الحركة الصهيونية قابضة داخل هذه
الرؤية الضيقة ، إلى أن جاء تيودور هرتزل (١٨٦٠ - ١٩٠٤) الصحفي النمساوي
اليهودي ومؤسس المنظمة الصهيونية وحدث الحل الصهيوني فخرج به من الإطار
اليهودي التقليدي وتخطى الوسطاء التقليديين وطرح المسألة في إطار استعماري
غربي لا علاقة له بأشكال القيادة التقليدية المألوفة لدى اليهود فتوجه إلى الدول
الغربية الاستعمارية . ولذا ، فقد نجح هرتزل فيما فشل فيه أحباء صهيون ويهود
شرق أوروبا ، فأسس المنظمة الصهيونية العالمية التي أصبحت الوسيط المباشر بين
أعضاء الجماعات اليهودية والقوى الإمبريالية ، وظل مهيمناً عليها تماماً حتى موته .

وقد ظن صهاينة الغرب أن هيمنتهم على المنظمة ستستمر وأن صهاينة الشرق
سيستمرون في تلقي الأوامر والإذعان لها . لكن ، بعد موت هرتزل بفترة قصيرة ،
استولى صهاينة شرق أوروبا على المنظمة على أساس أن الكثافة السكانية اليهودية

تتركز في بولندا وروسيا ، وعلى أساس أنهم أولى بالتعبير عنها وعن مصالحها ، وخصوصاً بعد أن تعلموا الدرس من هرتزل وتجاوزوا الإطار اليهودي المحض واتصلوا بالقوات الاستعمارية الغربية .

ويعُدُّ وعد بلفور الشكل الجديد الذي يحدد العلاقة بين الجماعات اليهودية والحضارة الغربية حيث قامت الزعامة الصهيونية بدور الشتلان أو الوسيط الحديث ، فعرضت تهجير فائض أوروبا من اليهود إلى فلسطين تخلُّصاً منهم ، ولتأسيس قاعدة للاستعمار الغربي ، على أن يقوم الغرب بحمايتهم في المقابل . وقد قبل الغرب هذه الرؤية ، وتم توقيع وعد (عقد) بلفور في هذا الإطار ، حيث يقوم اليهود تحت زعامة الحركة الصهيونية بتصريف أمورهم الدينية باستقلال كامل ، وتصريف أمورهم الإدارية والسياسية المحلية في المُستوطن الصهيوني ، على أن يتحرك الجميع في إطار المصالح الإمبريالية الغربية . وهذا الوضع لا يختلف في أساسياته عن وضع الجماعات اليهودية داخل إطار الإمبراطوريات القديمة . ولذا ، تم القضاء على المعارضة اليهودية للصهيونية أو كبح جماحها واستولت الصهيونية على الجماهير اليهودية من خلال الضغط « من فوق » أي من جهة الدولة الإمبريالية الراعية . ومن الأمور التي تستحق التأمل والدراسة أن معظم كبار المفكرين من أعضاء الجماعات اليهودية لا ينضمون إلى الحركة الصهيونية وهو ما يعني أن قيادة الجماعات اليهودية قد سقطت في يد صغار المفكرين الصهاينة الذين لا يتمتعون بأية آفاق فكرية فسيحة أو رؤى تاريخية عميقة .

ولم يتوقف الصراع على زعامة الجماعات اليهودية ، بعد وعد بلفور ، سواء على الصعيد العالمي أو داخل المُستوطن الصهيوني . أما على الصعيد العالمي وداخل الحركة الصهيونية ، فإن الصراع أصبح يدور بين أعضاء الجماعات اليهودية بما لهم من مصالح وارتباط بأوطان وهويات ثقافية متنوعة من جهة وبين المنظمة الصهيونية من جهة أخرى ، فهي تريد أن توظف كل شيء لصالح المُستوطن الصهيوني وترى أن الجماعات اليهودية ليست إلا وسيلة تخدم الغايات النهائية للصهيونية . وهذا الصراع مستمر حتى الآن وينعكس في حوادث متفرقة كما حدث عند اكتشاف نشاط بولارد ، الجاسوس الأمريكي اليهودي .

كما نشب صراع جانبي آخر على قيادة الجماعات بين صهاينة الداخل المستوطنين (أي الإسرائيليين) وصهاينة الخارج التوطينيين (أي أعضاء المنظمة الصهيونية العالمية) . وقد حُسم الصراع إلى حدّ كبير لصالح الصهاينة المستوطنين ، وتحولت المنظمة الصهيونية العالمية إلى أداة تابعة لحكومة المُستوطن الصهيوني . ولا تزال هناك أصداء للصراع القديم على قيادة الجماعات بين الصهيونية وأعداء الصهيونية من اليهود . ولكن هذا الصراع ، مثل كثير من الصراعات الشبيهة ، تم حسمه لصالح الحركة الصهيونية .

ودار صراع ثالث حول القيادة داخل المُستوطن الصهيوني ، وهو صراع ذو أبعاد عديدة . وينبغي ملاحظة أنه لا يوجد تجانس كبير بين أعضاء النخبة الحاكمة في إسرائيل وزعاماتها ، ولا داخل أعضاء المُستوطن الصهيوني فيما بينهم ، فأمثال ديثيد بن جوريون ومناحم بيجين وشيمون بيريز واسحق شامير جاءوا من بولندا ، وأمثال حاييم وايزمان وملاديمير جابوتنسكي وليثي إشكول مهاجرون من روسيا ، وييجال ألون وأرييل شارون واسحق رابين ولدوا في فلسطين ، وديفيد ليفي وشاحل من الدول العربية ، وجولدماثير وموشيه أرينز ومائير كهانا وأبا إيبان من الدول الناطقة بالإنجليزية . ومعظم القادة المذكورين لادينيون ولا يؤمنون باليهودية كعقيدة وإنما يتخذونها انتماءً إثنيًا وحسب . ولذا ، فقد نشب كثير من الصراعات بينهم حول توجّه الدولة الصهيونية وقيادتها ، فهناك صراع إثني بين الإشكناز وبقية أعضاء المُستوطن من يهود سفارد وعرب وغيرهم . كما يوجد صراع بين المؤسسة العمالية الصهيونية من جهة وبعض كبار الممولّين ودعاة الاقتصاد الحر ومن يتبعهم من قطاعات شعبية محبطة لا تجد وسيلة للإفصاح عن سخطها من جهة أخرى . وقد أخذ الصراع بين الدينين واللادينين في التصاعد ، كما يُلحظ أن هناك صراع أجيال غير واضح على سطح الأحداث ، ويطرح كل قطاع من أعضاء النخبة والزعامات نفسه باعتباره القيادة الأكثر كفاءة . بل يدور الآن صراع حاد بين القوى الدينية المختلفة : الصهاينة المتدينين والليتوانيين وحيد والسفارد . . . إلخ .

نفع اليهود

وجّه الصهاينة سهام نقدهم لأعضاء الجماعات اليهودية وناقشوا المسألة اليهودية في إطار مفهوم «نفع اليهود» ، أي في الإطار العلماني العقلاني المادي الشامل الذي طرحته الحضارة الغربية . و«نفع اليهود» عبارة تعني ضرورة النظر إلى أعضاء الجماعات اليهودية من منظور مدى نفعهم للمجتمعات التي يوجدون فيها ، وهو واحد من أهم الموضوعات الأساسية ، الواضحة والكامنة ، التي تتواتر في الكتابات الصهيونية والمعادية لليهود ، وبخاصة النازية .

والدفاع عن اليهود من منظور نفعهم يتضمن داخله قدراً كبيراً من رفضهم وعدم قبولهم كبشر لهم حقوقهم الإنسانية المطلقة . فالعنصر النافع عنصر متحوسل يُستفاد منه طالما كان نافعاً ومنتجاً ، كما يجب التخلص منه إن أصبح غير نافع وغير منتج . وهذا المقياس لم يُطبَّق على أعضاء الجماعات اليهودية وحدهم ، وإنما على كل أعضاء المجتمع الذي تحكمه الدولة القومية المطلقة العلمانية التي تقوم بحوسلة الطبيعة والإنسان . ومفهوم نفع الإنسان مفهوم محوري في فكر حركة الاستنارة نابع من الواحدة المادية .

وقد كانت الجماعات اليهودية تضطلع بدور الجماعة الوظيفية في كثير من المجتمعات ، فكان بعضها يضطلع بدور الجماعة الوظيفية القتالية والاستيطانية في العصور القديمة ، وتحولوا إلى جماعة وظيفية تجارية في العصور الوسطى في الغرب . وكان يُنظر إليهم باعتبارهم مادة بشرية تُستجلب للمجتمع كي تقوم بدور أو وظيفة محددة ، ويتم قبولها أو رفضها في إطار مدى النفع الذي سيعود على المجتمع من جراء هذه العملية . وبما دعم هذه الرؤية ، فكرة الشعب الشاهد التي تنظر إلى اليهود كأداة للخلاص ، ومن ثم ينبغي الحفاظ عليهم بسبب دورهم الذي يلعبونه في الدراما الدينية الكونية ، وهي الفكرة التي سادت أوروبا الكاثوليكية الإقطاعية .

وقد كان وضع اليهود مستقراً تماماً داخل المجتمعات الغربية كجماعة وظيفية وسيطة ذات نفع واضح . ولكن هذا الوضع بدأ في التقلقل مع التحولات البنيوية

العميقة التي خاضها المجتمع الغربي ابتداءً من القرن السابع عشر وظهور الثورة التجارية . ولم يَعدْ بالإمكان الاستمرار في الدفاع عن وجود اليهود من منظور فكرة الشعب الشاهد (الدينية) . فظهرت فكرة العقيدة الألفية أو الاسترجاعية التي تجعل الخلاص مشروطاً بعودة اليهود إلى فلسطين . ولكن هذه الأسطورة ذاتها لا تزال مرتبطة بالخطاب الديني ، ولم يكن مفر من أن يتم الدفاع عن اليهود على أسس لادينية علمانية ، كما لم يكن بد من طرح أسطورة شرعية جديدة ذات طابع أكثر علمانية ومادية . ومن ثم ، ظهرت فكرة نفع اليهود للدولة ، هذا المطلق العلماني الجديد ، فتم الدفاع عن عودة اليهود إلى إنجلترا في القرن السابع عشر من منظور النفع الذي سيجلبونه على الاقتصاد الإنجليزي ، حيث نُظر إليهم كما لو كانوا سلعة أو أداة إنتاج . وكان المدافعون عن توطين اليهود يتحدثون عن نقلهم على السفن الإنجليزية بما يتفق مع قانون الملاحة الذي صدر آنذاك ويجعل نقل السلع ، إلى إنجلترا ومنها ، حكراً على السفن الإنجليزية . كما أن كرومويل فكر في إمكانية توظيفهم لصالحه كجواسيس . وعمل اليهود في تلك المرحلة في وسط أوروبا كيهود بلاط ، وهم جماعة وسيطة يستند وجودها أيضاً إلى مدى نفعها .

وحيثما قام أعداء اليهود بالهجوم عليهم من منظور ضررهم وانعدام نفعهم ، دافع أعضاء الجماعات اليهودية عن أنفسهم لا من منظور حقوقهم كبشر ، وإنما من منظور نفعهم أيضاً . وقد استمر هذا الموضوع الكامن شائعاً في الفكر الغربي ، ثم ازداد انتشاره وتواتره مع علمنة الحضارة الغربية وسيادة الفلسفات المادية النفعية التي تحكم على مجالات الحياة كافة ، وليس على اليهود بمفردهم ، من منظور المنفعة . ولذا ، نجد أن فكرة نفع اليهود تزداد محورية في الفكر الغربي في أواخر القرن الثامن عشر ، وهي أيضاً المرحلة التي لم يَعدْ فيها وضع أعضاء الجماعات اليهودية في الغرب مقلقاً وحسب ، بل وصل فيها إلى مرحلة الأزمة .

ولا يمكن فهم تاريخ الحركة الصهيونية ولا تاريخ العداة لليهود (بما في ذلك النازية) إلا في إطار مفهوم المنفعة المادية هذا . فقد تبني المعادون لليهود هذا المفهوم وصدروا عنه في رؤيتهم وأدبياتهم ، فراحوا يؤكدون أن أعضاء الجماعة اليهودية شخصيات هامشية غير نافعة ، بل ضارة يجب التخلص منها ، وتدور معظم

الأدبيات العنصرية الغربية في القرن التاسع عشر حول هذا الموضوع ، وهي أطروحة لها أصدؤها أيضاً في الأدبيات الماركسية ، وضمن ذلك أعمال ماركس نفسه ، حيث يظهر اليهودي باعتباره ممثلاً لرأس المال الطفيلي الذي يتركز في البورصة ولا يغامر أبداً بالدخول في الصناعة . وتظهر الأطروحة نفسها في كتابات ماكس فيبر الذي يرى أن رأسمالية اليهود رأسمالية منبوذة ، بمعنى أنها رأسمالية مرتبطة بالنظام الإقطاعي القديم ولا علاقة لها بالنظام الرأسمالي الجديد (ومن المفارقات أن اليهودي الذي كان رمزاً لرأس المال المحلي المتجذر ، أصبح هنا رمز رأس المال الأجنبي الطفيلي المستعد دائماً للرحيل والهرب) .

وقد وصل هذا التيار إلى قمته في الفكر النازي الذي هاجم اليهود لطفيليتهم وللأضرار التي يلحقونها بالمجتمع الألماني وبالحضارة الغربية . وقد قام النازيون بتقسيم اليهود بصرامة منهجية واضحة إلى قسمين :

١ - يهود غير قابلين للترحيل ، وهم أكثر اليهود نفعاً .

٢ - يهود قابلون للترحيل (بالإنجليزية : ترانسفيرابل transferable) وقابلون للتخلص منهم (بالإنجليزية : ديسبوزابل disposable) ويُستحسن التخلص منهم بوصفهم عناصر غير منتجة (أفواه تأكل ولا تنتج [بالإنجليزية : يوسلس إيترز useless eaters] حسب التعبير النازي المادي الرشيد الطريف) وبوصفهم عناصر ضارة غير نافعة لا أمل في إصلاحها أو في تحويلها إلى عناصر نافعة منتجة .

والتعبيرات المجازية التي تُستخدم للإشارة إلى الدولة الصهيونية تؤكد كلها كونها أداة نافعة ؛ فالدولة هي حصن ضد الهمجية الشرقية (و ضد الأصولية الإسلامية في الوقت الحالي) ، وهي مؤخراً حاملة طائرات لأمريكا ، وهي في كلتا الحالتين ليس لها قيمة ذاتية ، وإنما تنبع قيمتها مما تؤديه من خدمات وما تجلبه من منفعة ، فالدولة هنا وظيفة ودور وليست كياناً مستقلاً له حركياته . وهي تستمد استمرارها ، بل وجودها ، من مدى مقدرتها على أداء هذا الدور . ولذا فنحن نشير إلى الدولة الصهيونية باعتبارها دولة مملوكية ، علاقتها بالغرب تشبه علاقة المملوك بالسلطان فهي علاقة نفعية محضة ، مستمرة طالما استمرت حاجة السلطان إلى الأداء المملوكي ، ونحن نشير لها كذلك باعتبارها الدولة الوظيفية ، أي الدولة التي

تضمن استمرارها وبقائها من خلال أدائها لوظيفتها . وربما يبيّن هذا مدى أهمية الانتفاضة التي أثبتت أن الدولة الصهيونية غير قادرة على أداء دورها ووظيفتها كقاعدة إستراتيجية في الشرق الأوسط ، وأن نفعها ليس كبيراً ، وأن أداءها لوظيفتها أصبح أمراً مكلفاً للغاية .

ومن هنا تحركت الدولة الصهيونية السريع لتجد لنفسها وظيفة جديدة ، فبدلاً من أن تكون حاملة طائرات أو معسكراً للمماليك ، ستصبح « سوبر ماركت » مثل سنغافورة ، ومركزاً للسماسة والصيارفة ، وربما ركيزة أساسية لقطاع اللذة (ملاهي - كباريهات - مصحات - سياحة) . ومن هنا أهمية توقيع اتفاقية السلام والإصرار على ضرورة رفع المقاطعة العربية ، حتى يتسنى للدولة الصهيونية أن تلعب دورها الجديد الذي لا يختلف كثيراً عن بعض الأدوار التي كان يلعبها أعضاء الجماعات الوظيفية اليهودية في الغرب . إن الدولة الصهيونية ستصبح سوبر ماركت ، أي فردوساً أرضياً يضم كل السلع التي يحلم بها الإنسان ، فيذوب فيها ويفقد حدوده وينسى كل المنغصات ، مثل التاريخ ، والذاكرة القومية ، والهوية ، والكرامة ، والقيم الأخلاقية .

العداء الصهيوني لليهود

تبلورت الأفكار الصهيونية والمعادية لليهود في أوروبا في القرن التاسع عشر ، وهي الحقبة التاريخية التي تبلورت فيها النظرية العرقية الغربية الخاصة بالتفاوت بين الناس بسبب الاختلاف بينهم في خصائصهم التشريحية والعرقية والإثنية ومن ثم نجد أن الرؤية الكامنة في كل من الصهيونية ومعاداة اليهود واحدة . وأن كثيراً من مقولات الصهيونية هي مقولات عرقية معادية لليهود .

ويرى الصهاينة أن معاداة اليهود ظاهرة طبيعية ورد فعل طبيعي وحتمي لوجود اليهود كجسم غريب في المجتمعات المضيفة . وقد نشأت صداقة عميقة بين حايم وايزمان وريتشارد كروسمان (الزعيم العمالي البريطاني) حين اعترف هذا الأخير بأنه " معاد لليهود بالطبع " . وقد كان تعليق وايزمان على ذلك : لو قال كروسمان غير ذلك فإنه يكون إما كاذباً على نفسه أو كاذباً على الآخرين . وقد وصف المفكر

الصهيوني الروسي جيكوب كلاتزكين (١٨٨٢ - ١٩٤٨) العداة لليهود بأنه دفاع مشروع عن الذات . وقد ميّز هرتزل بين العداة الحديث لليهود وبين التعصب الديني القديم ، ووصف هذا العداة الحديث بأنه " حركة بين الشعوب المتحضرة " تحاول من خلالها التخلص من شبح يطاردها من ماضيها . بل يرى الصهاينة أن هذه المعاداة هي أحد ثوابت النفس البشرية ، فهي تشبه المطلق الأفلاطوني أو المرض المستعصي . وقد عبّر اسحق شامير ، رئيس وزراء إسرائيل الأسبق ، عن معاداة البولنديين لليهود ، فأشار إلى أنهم يرضعونها مع لبن أمهاتهم . ويعادل شامير بذلك بين الفعل الأخلاقي والفعل الغريزي البيولوجي ، وهو ما يبين أنه يدور في إطار الحلولية بدون إله ، وهذا ما يفعله أيضاً نوردو ووايزمان وهتلر . فقد وصف وايزمان معاداة اليهود بأنها مثل البكتيريا التي قد تكون ساكنة أحياناً ، ولكنها حينما تسنح لها الفرصة فإنها تعود إليها الحياة ، وهكذا لا يميّز الصهاينة بين الأشكال المختلفة لمعاداة اليهود وإنما يرونها كلاً عضواً واحداً يتكرر في كل زمان ومكان ، كما يرون عدم جدوى الحرب ضد هذه الظاهرة باعتبارها أحد الثوابت وإحدى الحتميات .

والموقف الصهيوني من اليهود ، كما أسلفنا ، لا يختلف في أساسياته عن موقف المعادين لليهود :

١ - فكلا الموقفين يصدر عن الإيمان بأن اليهود شعب عضوي له عبقرية الخاصة وأن ثمة جوهرأ يهودياً هو الذي يميز اليهودي عن غيره من البشر ، وأن هذا الجوهر لا يتغير بتغير الزمان والمكان ، فاليهود دائماً يهود . ومن هنا ، فإن تصرف اليهودي كالأغيار هو تصرف مصطنع لا يعبر عن اندماجه في مجتمعه وتمثله قيمه وإنما يعبر عن ازدواجية في الذات . ومهما يكن ما يبديه اليهودي من ولاء لوطنه ، فهو ولاء مشكوك فيه . ومن هنا يحارب الصهاينة وأعداء اليهود ضد اندماج أعضاء الجماعات اليهودية في مجتمعاتهم . وقد نادى الصهاينة بضرورة رفض " سم الاندماج " أو " الهولوكوست الصامت " . وكذلك ، فإن المعادين لليهود يرون أن اليهودي المندمج يقلد الأغيار كالبيغاء ، فهو شخصية خطيرة غير أصيلة تهدد نسيج المجتمع ، وهو خطر حتى دون أن يدري . ولهذا كان النازيون يتعاملون مع الصهاينة فقط لإصرارهم على هويتهم اليهودية .

٢ - يرى الفريقان أن اليهود شعب عضوي لا يمكن أن يهدأ له بال إلا بأن يستقر في الأرض التي يرتبط بها برباط أزملي عضوي . ومن هنا ، يرفض المعادون لليهود ، وكذلك الصهاينة ، الكفاح من أجل إعطاء اليهود حقوقهم السياسية والمدنية الكاملة في أوطانهم ، وبالتالي فلا بد من " هجرة " اليهود إلى فلسطين أو " طردهم " إليها . ومهما كان المصطلح أو المسوغ ، فإن الحركة المثلى المقترحة واحدة ، وهي نقل اليهود من أوطانهم الفعلية إلى وطنهم القومي العضوي الوهمي . والواقع أن فكرة «الشعب العضوي» تحوي أيضاً فكرة «الشعب العضوي المنبوذ» ، وهي أساس تحالف الصهاينة والمعادين لليهود فكلاهما يهدف إلى إخلاء أوروبا منهم .

٣ - إذا كان اليهود يشكلون في رأي الصهاينة ، كلاً عضوياً يعبر عنه في الإنجليزية بكلمة «جوري Jewry» ، فإنهم مترابطون ترابطاً عضوياً لا فرق فيه بين الكل والجزء . ولذا ، يتحدث الصهاينة عن «العرقية اليهودية» باعتبارها تعبير الجزء عن الكل . وهم أيضاً يرون أن الهجوم على أية جماعة يهودية هو هجوم على الشعب اليهودي بأسره ، بغض النظر عن الظروف التاريخية . ويتبنى أعداء اليهود النظرة نفسها ، فهم يرون تماثل الجزء والكل ، وحينما يرتكب مجموعة من اليهود جرماً معيناً أو ينتشر بينهم الفساد ، فإن هذا يصلح أساساً للتعميم على كل اليهود . وفي الواقع ، فإن الحديث عن جرائم اليهود يشبه تماماً الحديث عن عبقريتهم .

٤ - تبنى الصهاينة كثيراً من مقولات المعادين لليهود في الغرب ، وكثيراً من صورهم الإدراكية النمطية ، وتزخر الكتابات الصهيونية بالحديث عن الشخصية اليهودية المريضة غير الطبيعية والهامشية وغير المنتجة التي لا تجيد إلا العمل في التجارة . بل إن ماكس نوردو ، ومن بعده هتلر ، طبق الصورة المجازية العضوية لا على معاداة اليهود بل على اليهود أنفسهم ، فقد شبههم بالكائنات العضوية الدقيقة التي تظل غير مؤذية على الإطلاق طالما أنها في الهواء الطلق ، لكنها تُسبب أفضع الأمراض إذا حُرمت من الأكسجين ، ثم يستطرد هذا العالم العنصري ليحذر الحكومات والشعوب من أن اليهود يمكن أن يصبحوا مصدرراً لمثل هذا الخطر . وقد ذكر يهودا جوردون أن تفوق اليهودي المستنير يكمن في أنه يعترف بالحقيقة ، أي

يَقْبَل اتهامات المعادين لليهود . وقد قال برنر : " إن مهمتنا الآن هي أن نعترف بوضاعتنا منذ بدء التاريخ حتى يومنا هذا " فاليهود شعب نصف ميت يعيش بقيم السوق ، لا يمانع في حياة كحياة النمل أو الكلاب ، مصاب بطاعون التجول " - ويمكن أن نجد عبارات مماثلة أو أكثر قسوة في الأدبيات الصهيونية . ومن هنا ، يؤمن الصهاينة بضرورة تطبيع الشخصية اليهودية حتى تتفق مع نمط الشخصية غير اليهودية الطبيعية السوية .

٥ - لا يقل عدا الصهاينة لليهودية عن عداتهم لليهود ، فقد رفضوا العقيدة اليهودية وحاولوا علمتها من الداخل .

ومع هذا ، يرى بعض الصهاينة أن معاداة اليهود بين الأغيار هي وحدها التي أدت إلى بقاء الشعب اليهودي ، أي أن عضوية الشعب أو مصدر تماسكه العضوي ليس شيئاً جوائياً (الهوية اليهودية - التراث اليهودي) وإنما شيء براني : عداة اليهود . ولكل هذا ، فإن الصهاينة يعتبرون أعداء اليهود حلفاء طبيعيين لهم وقوة إيجابية في نضالهم «القومي» لتهجير اليهود من أوطانهم . ولذا ، كان تيودور هرتزل على استعداد للتعاون مع فون بليفيه وزير الداخلية الروسي ، كما تحالف فلاديمير جابوتنسكي مع الزعيم الأوكراني بتليورا الذي ذبحت قواته آلاف اليهود بين عامي ١٩١٨ و ١٩٢١ ، وتعاون الصهاينة مع النازيين داخل ألمانيا وخارجها . ويتحالف الصهاينة في الوقت الحالي مع الجماعات الأصولية المسيحية في الولايات المتحدة والمعروفة بعداها العميق لليهود . بل إن المؤسسة الصهيونية تستخدم أحياناً وسائل المعادين لليهود لحمل اليهود على الهجرة ، كما حدث في العراق عام ١٩٥١ حين ألقى العملاء الصهاينة بالقنابل على المعبد اليهودي في بغداد . وعلى كل ، فقد صرح كلتزكين بقوله : " إنه بدلاً من إقامة جمعيات لمناهضة المعادين لليهود الذين يريدون الانتقاص من حقوقنا ، يجدر بنا أن نقيم جمعيات لمناهضة أصدقائنا الراغبين في الدفاع عن حقوقنا " .

وقد استمرت ظاهرة معاداة الصهيونية لليهود بعد تأسيس الدولة الصهيونية ، بل يُلاحظ أنها ازدادت حدة وتبلوراً بين أعضاء جيل الصابرا (أي أبناء المستوطنين الصهاينة المولودين في فلسطين) . فهؤلاء ينظرون إلى «يهود المنفى» (أي يهود العالم)

من خلال مقولات معاداة اليهودية وصورها النمطية . ويزخر الأدب الإسرائيلي بأعمال أدبية تصدر عن رفض ثقافي وأخلاقي بل وعرفي عميق لليهود الخارج .

اليهود في مقابل الأغيار

الصهيونية ، بنزعتها الوثنية الحلولية المتطرفة ، تميل نحو العنف ، ولذا فهي تميل نحو التفريق بين اليهود والأغيار . و«الأغيار» هي المقابل العربي للكلمة العبرية «جوييم» ، وهذه هي صيغة الجمع للكلمة العبرية «جوي» التي تعني «شعب» أو «قوم» (وقد انتقلت إلى العربية بمعنى «غوغاء» و«دهماء») . وقد كانت الكلمة تنطبق في بادئ الأمر على اليهود وغير اليهود ولكنها بعد ذلك استُخدمت للإشارة إلى الأمم غير اليهودية دون سواها ، ومن هنا كان المصطلح العربي «الأغيار» . وقد اكتسبت الكلمة إيحاءات بالذم والقدح ، وأصبح معناها «الغريب» أو «الآخر» . والأغيار درجات أدناها العكوم ، أي عبدة الأوثان والأصنام (بالعبرية : عوبدي كوخافيم أو مزالوت أي «عبدة الكواكب والأفلاك السائرة») ، وأعلاها أولئك الذين تركوا عبادة الأوثان ، أي المسيحيون والمسلمون . وهناك أيضاً مستوى وسيط من الأغيار «جيريم» أي «المجاورين» أو «الساكنين في الجوار» (مثل السامريين) .

ولا يوجد موقف موحد من الأغيار في الشريعة اليهودية . فهي بوصفها تركيباً جيولوجياً تراكمياً ، تنطوي على نزعة توحيدية عالمية وأخرى حلولية قومية . وتنص الشريعة اليهودية على أن الأتقياء من كل الأمم سيكون لهم نصيب في العالم الآخر ، كما أن هناك في الكتابات الدينية اليهودية إشارات عديدة إلى حقوق الأجنبي وضرورة إكرامه . وتشكل فكرة شريعة نوح إطاراً أخلاقياً مشتركاً لليهود وغير اليهود . ولكن ، إلى جانب ذلك ، هناك أيضاً النزعة الحلولية المتطرفة ، التي تتبدى في التمييز الحادّ والقاطع بين اليهود كشعب مختار أو كشعب مقدّس يحل فيه الإله من جهة والشعوب الأخرى التي تقع خارج دائرة القداسة من جهة أخرى . فقد جاء في سفر أشعياء (٦١/٥ - ٦) : " ويقف الأجنبي ويرعون غنمكم ويكون بنو الغريب حراثيكم وكراميكم . أما أنتم فتُدعون كهنة الرب تُسمون خدام إلهنا .

تأكلون ثروة الأمم وعلى مجدهم تتأمرّون " . كما جاء في سفر ميخا (٤ / ١٢) :
" قومي ودوسي يا بنت صهيون لأنني أجعل قرنك حديداً وأظلافك أجعلها نحاساً
فتسحقين شعوباً كثيرين " .

وقد ساهم بعض حاخامات اليهود في تعميق هذا الاتجاه الانفصالي من خلال
الشرعة الشفوية التي تعبر عن تزايد هيمنة الطبقة الحلولية داخل اليهودية ، فنجدهم
قد أعادوا تفسير حظر الزواج من أبناء الأمم الكنعانية السبع الوثنية (تثنية ٧ / ٢ - ٤) ،
ووسعوا نطاقه بحيث أصبح ينطبق على جميع الأغيار دون تمييز بين درجات عليا
ودنيا . وقد ظل الحظر يمتد ويتسع حتى أصبح يتضمن مجرد تناول الطعام (حتى
ولو كان شرعياً) مع الأغيار ، بل أصبح ينطبق أيضاً على طعام قام جوي (غريب)
بطهوه ، حتى وإن طبق قوانين الطعام اليهودية . كما أن الزواج المختلط ، أي
الزواج من الأغيار ، غير مُعترف به في الشرعة اليهودية ، ويُنظر إلى الأغيار على
اعتبار أنهم كاذبون في بطبيعتهم ، ولذا لا يؤخذ بشهاداتهم في المحاكم الشرعية
اليهودية ، ولا يصح الاحتفال معهم بأعيادهم إلا إذا أدى الامتناع عن ذلك إلى
إلحاق الأذى باليهود . وقد تم تضيق النطاق الدلالي لبعض كلمات ، مثل «أخيك»
و«رجل» ، التي تشير إلى البشر ككل بحيث أصبحت تشير إلى اليهود وحسب
وتستبعد الآخرين ، فإن كان هناك نهي عن سرقة «أخيك» فإن معنى ذلك يكون
في الواقع «أخيك اليهودي» .

وقد تحوّل هذا الرفض إلى عدوانية واضحة في التلمود الذي يدعو دعوة صريحة
(في بعض أجزاءه المتناقضة) إلى قتل الغريب ، حتى ولو كان من أحسن الناس
خلقاً . وقد سببت هذه العدوانية كثيراً من الحرج لليهود أنفسهم الأمر الذي دعاهم
إلى إصدار طبعات من التلمود بعد إحلال كلمة «مصري» أو «صدوقي» أو
«سامري» محل كلمة «مسيحي» أو «غريب» . وأصبح التمييز ذا طابع أنطولوجي
في التراث القبالي ، وخصوصاً القبّالاه اللوريبانية بنزعتها الحلولية المتطرفة ، حيث
ينظر إلى اليهود باعتبار أن أرواحهم مستمدة من الكيان المقدّس ، في حين صدرت
أرواح الأغيار من المحارات الشيطانية والجانب الآخر (الشرير) والخير من الأغيار

هم أجساد أغيار لها أرواح يهودية ضلت سبيلها . وقد صاحب كل هذا تزايد مطرد في عدد الشعائر التي على اليهودي أن يقوم بها ليقوي صلابة دائرة الحلول والقداسة التي يعيش داخلها ويخلق هوة بينه وبين الآخرين الذين يعيشون خارجها .

والواقع أن هذا التقسيم الحلولي لليهود إلى يهود يقفون داخل دائرة القداسة ، وأغيار يقفون خارجها ، ينطوي على تبسيط شديد ، فهو يضع اليهودي فوق التاريخ وخارج الزمان ، وهذا ما يجعل من اليسير عليه أن يرى كل شيء على أنه مؤامرة موجهة ضده أو على أنه موظف لخدمته . كما أنه يحوّل الأغيار إلى فكرة أكثر تجريداً من فكرة اليهودي في الأدبيات النازية أو فكرة الزنجي في الأدبيات العنصرية البيضاء . وهي أكثر تجريداً لأنها لا تضم أقلية واحدة أو عدة أقليات ، أو حتى عنصراً بشرياً بأكمله ، وإنما تضم الآخرين في كل زمان ومكان . وبذا ، يصبح كل البشر أشراً ومدنّسين يستحيل الدخول معهم في علاقة ، ويصبح من الضروري إقامة أسوار عالية تفصل بين من هم داخل دائرة القداسة ومن هم خارجها . وقد تعمقت هذه الرؤية نتيجة الوضع الاقتصادي الحضاري لليهود (في المجتمع الإقطاعي الأوربي) كجماعة وظيفية تقف خارج المجتمع في عزلة وتقوم بالأعمال الوضيعة أو المشينة وتتحول إلى مجرد أداة في يد النخبة الحاكمة . ولتعويض النقص الذي تشعر به ، فإنها تنظر نظرة استعلاء إلى مجتمع الأغلبية وتجعلهم مباحاً ، وتسبغ على نفسها القداسة (وهي قداسة تؤدي بطبيعة الحال إلى مزيد من العزلة اللازمة والضرورية لأداء وظيفتها) .

وبظهور الرأسمالية القومية وتزايد معدلات العلمنة (انظر الملحق) في المجتمعات الغربية ، اهتزت هذه الانعزالية بعض الشيء ، وظهرت حركة التنوير اليهودية واليهودية الإصلاحية اللتان كانتا تحاولان تشجيع اليهود على الاندماج مع الشعوب . لكن الرؤية الثنائية المستقطبة عاودت الظهور بكل قوتها مع ظهور الصهيونية التي ترى أن اليهود شعب مختلف عن بقية الشعوب لا يمكنه الاندماج فيها ، كما شجعت الانفصالية باعتبارها وسيلة مشروعة تحافظ بها أقلية عرقية على نفسها وتقاليدها وتراثها . فتحاول الصهيونية أن تنشئ سياجاً بين يهود الخارج وبين

الآخرين (ومن هنا الاهتمام الشديد بتأكيد ظاهرة معاداة اليهود والإبادة النازية لليهود باعتبارها العلاقة النموذجية والحتمية بين اليهودي والأغيار) . كما أن الصهاينة يشجعون اليهود على الاهتمام بهويتهم اليهودية وبإثنتهم حتى لا يذوبوا في الآخرين . ويشار في الولايات المتحدة إلى الذكر غير اليهودي على أنه «شيكس» ، وإلى الأنثى غير اليهودية على أنها «الشيكسا» (وهما كلمتان مضمونهما الدلالي يتضمن فكرة الدنس والنجاسة وعدم الطهارة) . ويشار إلى «الشيكسا» على أنها حيوان مخيف يختطف الأولاد اليهود . ويشار إلى الزواج المختلط على أنه «هولوكوست صامت» ، أي «إبادة صامتة» .

وفي الأدبيات الصهيونية العنصرية ، فإن الصهاينة يعتبرون العربي على وجه العموم ، والفلسطيني على وجه الخصوص ، ضمن الأغيار حتى يصبح بلا ملامح أو قسما (ويشير وعد بلفور إلى سكان فلسطين العرب على أنهم «الجماعات غير اليهودية» أي «الأغيار») . وينطلق المشروع الاستيطاني الصهيوني من هذا التقسيم الحاد ، فالصهيونية تهدف إلى إنشاء اقتصاد يهودي مغلق ، وإلى دولة يهودية لا تضم أي أغيار . ومعظم المؤسسات الصهيونية (الهستدروت ، والحركة التعاونية ، والجامعات) تهدف إلى ترجمة هذا التقسيم الحاد إلى واقع فعلي ، كما أن فكرة العمل العبري تنطلق من هذا التصور .

وبعد ظهور الدولة الصهيونية الوظيفية (أي التي يستند وجودها إلى وظيفة محددة تضطلع بها) ، انطلق هيكلها القانوني من هذا التقسيم . فقانون العودة هو قانون عودة لليهود ، يستبعد الأغيار من الفلسطينيين . ودستور الصندوق القومي اليهودي يُحرّم تأجير الأرض اليهودية للأغيار . ويمتد الفصل ليشمل وزارات الصحة والإسكان والزراعة .

ومن أطرف تطبيقات هذا المفهوم في الوقت الحاضر ، القرار الذي أصدره مؤتمر الدراسات التلمودية الثامن عشر الذي عُقد في القدس عام ١٩٧٤ وحضره رئيس الوزراء آنذاك إسحق رابين ، والذي جاء فيه ضرورة منع "قيام الطبيب اليهودي بمساعدة المرأة غير اليهودية على الحمل" . ومن المعروف أن الشرع اليهودي قد

تناول بشيء من التفصيل قضية : هل يجوز للطبيب اليهودي أن يعالج غير اليهودي؟ وقد كان الرد هو النفي في جميع الأحوال ، إلا إذا اضطر اليهودي إلى ذلك . وينبغي أن تكون نية الطبيب دائماً هي أن يحمي الشعب اليهودي ونفسه ، لا أن يشفي المريض . وقد أجاز بعض الفقهاء اليهود (مثل جوزيف كارو في كتابه : بيت يوسف والشولحان عاروخ) أن يجرب الأطباء اليهود الدواء على مريض غير يهودي (وهي فتوى كررها موسى إيسيرليز في تعليقه على الشولحان عاروخ) . وقد وردت كل الحقائق السابقة في مقال كتبه إسرائيل شاهاك ، ولم ترد نقابة الأطباء الإسرائيلية على اتهاماته .

وقد أثبتت بعض استطلاعات الرأي في إسرائيل أن الخوف من الأغيار لا يزال واحداً من أهم الدوافع وراء سلوك الإسرائيليين . وتحاول الدولة الإسرائيلية تغذية هذا الشعور بإحاطة المواطن الإسرائيلي بكم هائل من الرموز اليهودية ، فشعار الدولة هو شمعدان المينوراه ، وألوان العلكم مستمدة من شال الصلاة (طاليت) ، وحتى اسم الدولة ذاتها يضمم التضمينات نفسها . بل إن شعار العام الدولي للمرأة ، الذي يتضمن العلامة (+) باعتبارها الرمز العالمي للأنثى ، تم تغييره في إسرائيل حتى يكتسب الرمز طابعاً يهودياً وحتى لا يشبه الصليب . وقد جاء في التراث الديني التقليدي أنه لا يصح مدح الأغيار . ولذا ، فحينما تسلم عجنون جائزة نوبل للسلام ، مدح الأكاديمية السويدية ولكنه في حوار مع التلفزيون الإسرائيلي ، قال : " أنا لم أنس أن مدح الأغيار محرم ، ولكن يوجد سبب خاص لمديحي لهم " ، فقد منحوه الجائزة !

ولكن هذا الموقف من الأغيار ما كان له أن يتحول إلى أيديولوجية سياسية عدوانية ، دون ظهور الاستعمار الغربي بعنصريته وعدوانيته . ولذا يكون مع الأكثر تفسيرية أن ننظر لهذا الموقف من الأغيار ، باعتباره إمكانية كامنة وحسب ، تحولت إلى ممارسة تاريخية من خلال حركات الحضارة الغربية والاستعمار الغربي ، لا من خلال حركات ما يسمى " التاريخ اليهودي " ! وبهذا نكون قد وضعنا العنف الصهيوني في سياقه العام الأساسي ، دون أن نهمل سياقه الخاص الفرعي .